عـــروس تيفـريت

مجموعة قصصية

مصـــطفى الخـــــراز

الكاتب: مصطفى الخراز
الكتاب: عروس تيفريت
النوع: قصص
الطبعة الاولى: 2024
الإيداع القانوني:
ردمك:
لوحة الغلاف: الفنان محمد سعود
تصميم وإخراج :جامعة المبدعين المغاربة
الناشر: جامعة المبدعين المغاربة:

الهاتف والواتساب: 0673224191
البريد الإلكتروني: gh-mhd@hotmail.com
العنوان: دار الشباب سيدي مومن/ شارع الحسين السوسي سيدي مومن الدار البيضاء

يعبّر المنشور عن رأي صاحبه، ولا يعبر بأي حال من الأحوال عن رأي الجمعية.
الطبع :مطبعة وراقة بلال

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهــــــــداء

أهـــــدي هذا العـــــمـل إلى:

والــــــــدي رحـــــــمه الله

إلى والدتــــــــي أطـــــال الله في عمـــــرها

إلى زوجـــــتي وابنـــتي

إلى جمــــيع إخــــوتي وأخـــــــواتي

إلى كل أصدقائي

إلى كل أســـاتذتي الأجلاء

إلى كل من تعلمت على يـده حرفا.

عروس تيـفريت

على الضفة اليمنى لوادي درعة، جلست زينب بجانب نخلة تراقب أغنامها، وفي يدها قنينة ماء ومذياع تستأنس عبره بأثير الإذاعة لتسمع ما لا تراه، أشارت إلى أغنامها بعصاها لتعود إلى حظيرتها، فقد حان وقت الرجوع.

لما وصلت زينب أدخلت الأغنام إلى مكانها وأغلقت الباب، دخلت إلى المنزل فوجدت ضيفا اسمه "با ابراهيم" في انتظارها، سلمت على كل من في البيت وانصرفت إلى المطبخ، فتبعتها أمها...

قالت زينب:

ماذا يريد "با ابراهيم" في هذا الوقت بالتحديد؟ --

--قالت الأم: أصارحك أن هذا الرجل يريد الزواج منك، وأنا غير راضية على هذا الزواج، وتمت قراءة الفاتحة بموافقة والدك وأنت تعرفينه جيدا، لم أستطع قول أي شيء بعدها ...

أسقطت زينب كأسا من يدها لما أحست بدوار شديد، فإذا بوالدها يدخل على عجل قائلا:

--اجمعي يا زينب امتعتك الآن، لأن هذا الرجل يريد الزواج منك، ولقد وافقت على ذلك، فهو رجل ثري وغني يمتلك عدة منازل في المدينة لعله يجد لنا منزلا هناك... هو الآن على عجلة من أمره، لأنه يريد أن يسافر. أنت الآن زوجته، اذهبي لتلقي عليه التحية و تذهبي معه .

لم يترك لها مجالا لقول لا، فعمرها لا يتجاوز العشرين سنة، وهو في الستين من عمره .

لم تلعب مثل باقي فتيات القرية، كانت تقضي معظم أوقاتها في الرعي والطبخ والغسيل، لم تتعلم ولم تدرس حرفا ينفعها يوما...

لم تفكر طويلا هذه العروس المفروض علها الزواج، أخذت قنينة ماء باردة، لأن الحرارة المفرطة صيفا بالنهار تستمر حتى الليل، فهربت من البيت مسرعة نحو مغارة في جبل قريب من قرية تيفريت وهو أصل

التسمية، وهي في الطريق تنهار باكية، فجلست لتستريح لكن تخشى على نفسها أن يجدها أحد هناك، لم تنتبه زينب إلى وجود الحشرات والحيوانات منها الأفاعي والعقارب والعناكب والكلاب... المهم هو أنها تريد الوصول إلى مكان أكثر أمانا، لما دخلت المغارة متعبة ... نامت قليلا لعلها تعيد ترتيب أوراقها والتفكير في خطة بديلة، لأنها تعرف جيدا أن والدها لن يتركها من دون أن يزوجها لرجل أكبر منه هو نفسه، بينما هي في نومها الخفيف، تسللت إلى المكان أفعى سامة، لدغت زينب في يدها اليسرى، فصرخت بصوت عال جراء ذلك، فلما رأت الأفعى خرجت مسرعة نحو البيت، فالأمر يزداد سوءا كلما انتشر السم في جسدها المنهمك .

التقاها والدها ورجال القرية الذين يبحثون عنها عند مدخل القرية بعد دقيقتين من الجري، أخبرتهم أنها تعرضت للدغة أفعى وأنها لا تستطيع الصمود طويلا ....

لا إسعاف هناك ولا مصل ولا طريق معبد لتصل الإسعاف ولا مروحية طبية تجول المكان... زيادة عن الشبكة الضعيفة التي تحول دون الاتصال بالمدن لطلب المساعدة .

فقدت زينب وعيها بشكل تام، ليزداد أعداد الحاضرين من حولها، منهم الزوج الذي جاء لخطبتها. ويكثر الكلام والبكاء والتأثر بما حدث في منظر حزين.

لقد ماتت زينب، توفيت عروس تيفريت، تاركة خلفها زوجها بالفاتحة ووالديها، فأغمي على الأم على الفور، وشعر الأب بحسرة وندامة شديدتين، لأنه كان السبب في كل ما حدث ...

فكانت زينب مثالا لباقي الحالات التي تتكرر، فإما أن تموت غرقا في الوادي أو تموت بلدغة أفعى أو عقرب أو يتم تزويجها رغما عنها .

في المدينة

وسط الازدحام الذي تشهده مدينة الرباط، سمع الكل صوت اصطدام قوي لدراجة نارية بسيارة أجرة زرقاء، أسرع الناس نحو مكان الحادث، فقام شرطي المرور بحماية المكان وتأمينه، لما وصلت سيارة الإسعاف، نقلت رجلا يبدو في الخمسين من عمره، فاقد الوعي لا يتحرك، سقطت منه بطاقة هويته من جيبه فالتقطها الشرطي وتعرف على المعلومات الخاصة بالمصاب، كان اسمه خالد من مواليد مدينة زاكورة ومقيم في الرباط، وحسب المعطيات الأولية فإنه مصاب بكسور بليغة... تم أخذه إلى مستشفى العاصمة للقيام بالفحوصات الضرورية، كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة صباحا، حيث كان خالد متجها نحو عمله بواسطة دراجة نارية، وما هي إلا ساعتين حتى امتلأ الجناح الذي يتواجد فيه المصاب، حضر أقرباؤه وأصدقاؤه، بينما في قسم الإنعاش صمت يخيم على الوضع، إنه وقت إجراء عمليتين جراحيتين للمصاب على مستوى العمود الفقري والعنق .

وفي الخارج بكاء الأهل ودعوات الوالدة لم تتوقف، احمرار الأعين وشحوب الوجوه... كلما خرجت ممرضة من قسم إلى قسم آخر يسألها ابن أخ المصاب عن حالته، فتجيب: يجب عليكم الدعاء للمريض.

كان الشخص المصاب قد زار أسرته في مسقط رأسه بزاكورة في الجنوب الشرقي للمغرب، ودع والدته وزوجته وأولاده وداعا أخيرا، وأخبرهم أنه سيعود لزيارتهم حينما يشتري منزلا صغيرا هناك في العاصمة .

لما علمت الزوجة بالأمر سافرت على عجل لرؤية زوجها، وبعد ليلة كاملة من السفر وصلت المستشفى وهي منهارة تماما، والحزن ظاهر لا يخفى، توجهت مباشرة إلى غرفة الإنعاش بتوجيه من موظفة الاستقبال، وقفت الزوجة تنظر إلى زوجها عبر زجاج شفاف وهو مستلق على سرير طبي حديدي لا يحرك ساكنا كأنه لا وجود له بين الحاضرين، رأسه ملفوف بضمادات والشيب يطل منها بين لفة وأخرى... تلوح بيديها والدمع ينزل من عينيها.

بعد ساعة من وصول الزوجة، رأت الممرضون والأطباء يتسارعون إلى غرفة الإنعاش، لما سألت عن السبب أخبروها أنهم فقدوا المريض، لم تنجح العملية الجراحية لأن الحادثة أثرت عليه بشكل كامل...

-- تقول الزوجة: تركتني هنا وحيدة بين جدران المستشفى أتأمل في البياض الذي تلبسه الآن، لمن تتركتني وأولادك الصغار ينتظرون قدومك، لقد أخبرتهم أنك ستزورهم عما قريب .

لقد توفي وترك قلبا مجروحا، فراغا ونقصا وعينا لن تجف دموعها، أهلا لن يتوقفوا عن زيارة مرقده الأخير.

رسالة من مجهول

على مقربة من بئر قديم، جلس محمد فوق جذع نخلة مقطوعة، يحتسي كأس شاي مطبوخ على جمر ممهل، ورائحة النعناع تفوح منه، محمد في السنة الثامنة والستين من عمره، اعتاد الجلوس وحيدا في هذا المكان، يستمتع بلحظة الغروب، يراقب أغنامه المتفرقة فيرعاها، ينتظر اتصالات هاتفية من أبنائه المهاجرين صوب مدن الرباط والدار البيضاء ومراكش. ينام بضع دقائق ويستيقظ، ليتوضأ ويعود ليسلك طريقه إلى المسجد ليصلي صلاة المغرب، هكذا كان محمد يقضي أيامه منذ أن تقاعد عن عمله مع شركة لحفر الآبار ...

بينما هو في مكانه كالمعتاد، جاءه شاب عشريني برسالة، وضعها الشاب بين يدي محمد بعد أن سلم عليه، وانصرف بعدها دون أن يخبر محمد عن مصدر الرسالة.

بقي محمد يراقب الرسالة من الظاهر قبل أن يفتحها ويعرف محتواها، لا علامة ولا شيء يدل على مرسلها، بعد أن وضع نظارته السوداء، قرر فتح الظرف فوجدها رسالة مكتوبة بخط اليد:

بسم الله والصلاة على رسول الله وعلى آله وأصحابه، إلى رفيق دربي، أفضل الأصدقاء أنت، صديق الطفولة الذي طال غيابه والشوق إلى لقائه، صديقي البطل الذي كان صغيرا وهرم الآن لقد تذكرتك وأنا أكتب هذه الأسطر، حينما أنقذتني من سقوطي من أعلى شجرة الرمان في منزلنا، وأسميك البطل الخارق عندما نبهتني من وجود سيارة "بيجو" كادت تصدمني وأنا ألعب في الطريق...

ابتسم محمد ابتسامة عريضة لما قرأ هذه الأسطر الأولى، لقد تعرف على صاحب الرسالة، إنه يوسف، صديق الطفولة الذي هاجر إلى بلد أوروبي عبر قوارب الموت منذ زمن بعيد لما كان عمره عشرين سنة، انقطعت أخباره منذ ذلك العهد، انتظرته والدته ولم يعد. كان يحلم دائما بالوصول إلى الضفة الأخرى .

--أكمل محمد قراءة الرسالة: الآن وبعد هذه المدة عدت إلى بلادي وبدأت أستقر وأتذكر كل شيء هنا فبعثت إليك بهذه الرسالة لما سألت عنك في السوق الأسبوعي وأخبروني عن مكان تواجدك. سأزورك قريبا يا صديقي والسلام.

فرح محمد فرحا شديدا بهذه الرسالة التي جعلته يكمل كأس الشاي الذي في يده اليمنى مرة واحدة لكي ينهض من مكانه ليتوضأ ويجهز نفسه للذهاب إلى المسجد لصلاة المغرب .

بعد يومين التقى محمد بصديقه يوسف في السوق الأسبوعي للقرية وتبادلا حديثا شيقا دام مدة طويلة، والشاي كان حاضرا شاهدا على حلاوة اللقاء، ومتعة الحكي في حضرة تذكر براءة الطفولة ومرارة الغربة .

على شجرة الرمان

حطت حمامة بيضاء على غصن متين من شجرة الرمان، ظنت المكان آمنا وأرادت أن تبني عشا تضع فيه بيضها، فإذا بعصفور رمادي اللون يحلق من فوقها قائلا :

--أيتها الحمامة، إن شجرة الرمان هذه لا تكاد تخلو من الثعابين القاتلة، ابحثي لك عن مكان آخر تضعين فيه بيضك.

-- ردت الحمامة قائلة: شكرا أيها العصفور الجميل على هذا التنبيه. أنت فعلا عصفور مخلص، لكن أين تسكن أنت؟

أجاب العصفور: أنام على غصن هذه الشجرة منذ عدة أعوام، لكن يوجد ثعبان ضخم، فأصبحت أعرف الوقت الذي ينزل فيه من على هذه الشجرة للصيد في الأسفل.

قالت الحمامة: فعلا أمر مؤسف، فشجرة الرمان هذه مكان جميل لكي أبني فيه عشا لي.

ذات ليلة نام العصفور ونسي الوقت الذي يعود فيه الثعبان من الصيد، لما استيقظ من نومه وجد الثعبان أمامه، بوجه مخيف وملامح موحشة. لم يعد قادرا على التحرك أو التحليق من شدة الخوف...

سأل الثعبان: ما بك أيها العصفور الصغير؟ لم أنت خائف؟ --

أجاب العصفور في دهشة: لقد أخفتني أيها الثعبان، أرجوك لا تلحق بي الأذى، أرجوك، أرجوك --...

رد الثعبان: لا تخف. أتيت إلى هذه الشجرة لكي أوفر لك الحماية من شر باقي الثعابين.

أخبر العصفور الثعبان بأن حمامة بيضاء تريد أن تبني عشا لكي تضع بيضها فوق هذه الشجرة، لكنها خائفة منه...

أكد الثعبان للعصفور بأنه سيوفر لهما الحماية على شجرة الرمان، فحلق العصفور إلى الحمامة ليخبرها بالأمر، لم تثق بالثعبان... إلا أنها وضعت يقينها

وثقتها في الله وسمعت كلام العصفور، فاختارت غصنا قويا على شجرة الرمان، اتخذته مسكنها الدائم، موطنا الجديد ومقر همومها وأحزانها وأفراحها ...

فقامت ببناء عش لها فوضعت ست بيضات احتضنتها تحت أنظار العصفور والثعبان، وعاش الثلاثة على شجرة الرمان في أمن وسلام.

غيوم ودموع

في يوم من أيام فصل الشتاء بمدينة زاكورة في الجنوب الشرقي للمغرب، استيقظ أحمد ذو العشر سنوات من نومه وتوجه ليصلي صلاة الفجر في المسجد برفقة أبيه إبراهيم. خلال عودتهما من المسجد، لاحظا أن السماء بدأت تتزين بالغيوم، تأتي متفرقة تارة، وتجتمع تارة أخرى. و ما هي إلا دقائق معدودات حتى ظهر برقا قويا ورعدا مرعبا، اقترب أحمد وإبراهيم من الوصول إلى المنزل، بعدها بدأت تنزل قطرات مطرية خفيفة، تتسارع كما ازداد البرق والرعد، بدأت العاصفة وبدأ صراخ الطفل أحمد. يتساقط البرد بحجم كف طفل صغير، أمطار قوية ورعد وبرق وغيوم سوداء، حقا الأمر مرعب...

يمتلك إبراهيم منزلا طينيا بسيطا، سقفه من بقايا النخل والقصب والطين الممزوج مع التبن، لم يكن السقف قويا ليتحمل قوة العاصفة، فبدأت قطرات من الماء تخترق السقف الذي بدأ يخزن فوقه أطنانا من الماء

كباقي العديد من منازل القرية التي يقطن فيها إبراهيم ...

أخرج إبراهيم زوجته ووالديه من المنزل خوفا من سقوط أحد الأسقف المنهارة أمام قوة العاصفة، أسرع الكل إلى مسجد القرية للاختباء بداخله فأصبحت جدران البيوت الطينية تتهاوى تباعا ...

قال أحمد: كدنا نموت في منزلنا الصغير لولا لطف الله -.

-أجاب إبراهيم: نعم، ولكن فضل الله علينا كثير.

على الساعة العاشرة صباحا، كانت الأزقة مغمورة بمياه الأمطار والفيضانات التي جرفت معها قطة صغيرة في اتجاه مجاري المياه، فأنقذها طفل في سن أحمد واضعا إياها على لوح خشبي... بعدها ببضع دقائق سقط جدار طيني ارتفاعه خمسة أمتار، وللأسف قد سقط وتحته شابة ثلاثينية كانت تخرج مياه الأمطار المتجمعة في البيت.

تجمع شباب من أهل القرية، وبدأ الكل في الحفر والبحث عن الفتاة، حتى وجدوها غارقة في دمائها بعد ساعة من الحفر، فارقت الحياة تاركة خلفها والدتها التي خيم عليها حزن شديد.

تم نقل الشابة المتوفاة إلى مستودع الأموات، والأمطار القوية مستمرة والساعة تشير إلى الثانية زوالا. أما إبراهيم فعاد إلى بيته يحاول سد الثقوب التي أحدثتها الأمطار في السقف، بينما هو كذلك سقط جزء من سقف البيت الذي تنام فيه والدته، فخرج إبراهيم مسرعا من البيت متوجها إلى المسجد، أخبر والدته بالأمر فانهارت بكاء وحزنا.

استمرت العاصفة حتى الساعة الخامسة مساء، فبدأ الجو يصفو والغيوم تتباعد، وهنا سيقف السكان مكتوفي الأيدي، لا شيء يمكن فعله الآن. سوى جمع الأغراض المتفرقة في كل مكان، سوى مواساة بعضهم البعض على كل ما جرفته الفيضانات، على كل ما هدمته وأخذته إلى وادي درعة .

كان اليوم ثقيلا جدا، لا راحة فيه ولا أكل ولا شرب، معاناة لحقت بأخرى خلفها فصل الصيف الماضي الذي كان يسوده الجفاف التام في البلاد، حيث جفت الأنهار والآبار والسواقي والعيون، وحلت محله رياح قوية وحرارة ورمال...

اجتمع شباب القرية ليلا في ساحة المسجد يتداولون في أمر البيوت الآيلة للسقوط، من أجل إبعاد السكان عنها وإيوائهم في مساكن تقيهم البرد. فقال خالد:

- أملك بيتا كبيرا وله سقف متماسك حديث التشييد، أفضل أن يقطن فيه الناس الآن على أن يبقى فارغا ...

كل هذا جعل الناس يتملكهم الحماس والرغبة في التعاون من أجل مد يد العون والمساعدة، نطق شيخ كبير جالس فوق كرسي خشبي: أما أنا فبقي لدي القليل من المال يكفي لثلاثة أيام إطعاما للفقراء والمساكين الذين فقدوا منازلهم بسبب الفيضانات.

-قال إبراهيم: وأما أنا فبقيت لدي بعض الملابس الخاصة بالرجال، فهي لم تستعمل بعد و تقي البرد، أعطيها للفقراء والمساكين الذين فقدوا أمتعتهم ...

أعجب الحاضرون بكل ما قيل، فشرعت النساء في تحضير الطعام، وأحضر إبراهيم الملابس، وذهب البقية إلى منزل خالد.

خلال وجبة العشاء، انبهر أحمد بمدى التعاون والتضامن بين أهل القرية، لأن يد الله مع الجماعة .

في الصباح الباكر، والناس ينظفون منازلهم من أثر الفيضانات، والأطفال يتعقبون الحشرات التي أخرجتها الأمطار من جحورها، والبعض يخرج بقايا الأسقف المنهارة، فإذا بسيارة لنقل الأموات قادمة من الطريق المؤدية للقرية، انطلق الطفل ياسين نحو منزل إبراهيم يخبره بالأمر...

خرج رجال القرية لاستقبال سيارة نقل الأموات، لقد أحضرت جثة الشابة الثلاثينية التي كانت قد توفيت يوم أمس عندما انهار عليها الجدار. وأمام المنازل نسوة

القرية يودعنها وداعا أخيرا دون معانقتها ولا النظر إلى وجهها الذي لطالما اعتنت بجماله، كانت تستعد لحفل زفافها خلال فصل الربيع المقبل. كانت تتمنى لبس البياض، لكن قدر الله وما شاء فعل .

نقل جثمانها ليوارى الثرى في مقبرة القرية التي تبعد عنها بكيلومتر واحد.

عاد الرجال بعد الدفن وفي أعينهم علامات الحزن والألم والتعب، سارعوا إلى إكمال ما تم الشروع فيه قبل الظهيرة، لأن الأجواء بدأت تتغير خاصة وأن الغيوم تجتمع وتتفرق كعادتها ...

تعاون الكل على وضع قناة مائية تتوسط أزقة القرية، لكي لا تتجمع المياه في الطريق وتعرقل حركة المرور، وسط تكبيرات للعمال وزغاريد النساء، لأن بالعزيمة والصمود يسهل كل صعب .

أما إبراهيم وأحمد، فقد قررا صنع خيمة كبيرة ونصبها في ساحة وسط القرية للمساعدة في الإيواء. ومع بداية المساء كان الكل في منازلهم ينعمون براحة

تامة، يشاهدون نشرات الأخبار عبر شاشات التلفاز الصغيرة، أو عبر إذاعات الراديو، يتابعون أنباء العالم ونشرات الجو العاجلة، وما يشهده المغرب من فيضانات في مناطق متفرقة...

في صباح اليوم الموالي أضحى الجو صحوا والسماء صافية نقية كنقاء نفوس أهل القرية الذين تعاونوا على فعل الخير والتكتل لمواجهة ومجابهة الصعاب وظروف الحياة. غابت الغيوم السوداء وحلت محلها شمس الصباح الساطعة فوق أسقف المنازل التي انهارت.

نظم أهل القرية بعد شهر من تلك الأحداث حفل زواج جماعي لكل من أراد الزواج، وهذا يدخل ضمن عاداتهم وتقاليدهم وعاش الكل بعدها في أمن وأمان وطمأنينة، فقد مرت بهم أوقات قاسية وعوضهم الله بلحظات الفرح والسرور. وهذه هي عظمة الله تعالى.

الشجرة العجيبة

ذات صباح خرجت ياسمين برفقة والديها، إلى الحقول المجاورة لبلدتها، لجلب حطب الطبخ والتدفئة وتسخين الماء...

لأن البلدة تنخفض فيها درجة الحرارة بشكل كبير،

وجدت ياسمين بين أشجار النخيل الكثيفة غصنا من شجرة الرمان، بجانبه بذرة عجيبة تشبه الزجاج في نقائها وتشبه الزيتون في شكلها...

أسرعت ياسمين إلى والديها وهي تنادي:

-.أبي . أمي... عليكما رؤية ماذا وجدت بجانب الحطب

-- رد الأب في اندهاش: ماذا وجدت يا ياسمين؟

--قالت الأم: ماذا هناك يا ياسمين؟

--أجابت ياسمين: لقد وجدت هذا الشيء العجيب ولا أعرف اسمه...

--قالت الأم: ربما هي بذرة؟

--قال الأب: ربما كذلك، يجب غرسها في مكان ما في المنزل.

أخرج الأب البذرة فقام بغرسها في إناء أمام البيت .

لاحظ الأب بعد يومين أن البذرة تنمو بشكل سريع، وأنها تحتاج إلى كمية كبيرة من الماء، وبعد عشرة أيام فقط، وصل طولها مترين... اندهش الأب والأم من هذه الشجرة .

--قالت ياسمين: لقد بحثت عن اسمها فلم أجد أي شيء، لذلك سأسميها الشجرة العجيبة.

إنها بالفعل شجرة عجيبة، بعد عشرين يوما وصل طولها أربعة أمتار، وبدأت تطل على بيت ياسمين ومنازل الجيران، ولا تتوقف عن الاستهلاك الكبير للماء...

بدأت الثمار تظهر، لكنها مختلفة تماما، تشبه وجه طفل صغير بملامح وصفات مختلفة، كل ثمرة تجدها مبتسمة وأخرى حزينة...

زاد الأمر عن حده لما بدأت هذه الثمار تصدر صوتا غريبا خلال الليل فقط، جعلت سكان القرية يخرجون من منازلهم للبحث عن السبب، كانت الشجرة قد وصل طولها عشرة أمتار، فقرر فلاح قطع هذه الشجرة بالمنشار، كلما اقترب المنشار منها ازداد الصراخ، وكلما ابتعد عنها ازداد الضحك. كانت الثمار تتلألأ كالنجوم في السماء ليلا .

انصرف الفلاح يائسا وترك الأمر على ما هو عليه. حاول أحد الشباب الصعود إلى أعلى الشجرة فلم يجد طريقا للصعود، كل أهل القرية يبحثون عن حل للتخلص منها.

فكر البعض في الهجرة إلى المدينة للبحث عن مسكن ملائم .

خرجت ياسمين ذات ليلة فجلست بجانب الشجرة، وهي تعاتب نفسها بقولها :

--لقد ارتكبت خطأ كبيرا لما أخذت البذرة من مكانها، لم أكن أعرف أنها ستشكل مصدر إزعاج للسكان. يجب البحث عن طريقة للاعتذار من أهل القرية .

فجأة سقطت قطرة ماء على وجه ياسمين من أعلى الشجرة، فعلمت أنها بحاجة إلى الماء .

أحضرت ياسمين إناء من الماء، فاشترطت على الشجرة ألا تزعج السكان مرة أخرى وإلا ستموت عطشا، فأصبحت الثمار المزعجة تتحرك يمينا وشمالا دلالة على قبولها للشرط، لما سكبت ياسمين الماء على جذع الشجرة أصبحت ترتجف بقوة فسقطت الثمار على الأرض فأصبح شكلها يشبه الرمان.

لما علم أهل القرية بالأمر أسرعوا إلى عين المكان لجمع الثمار المتساقطة، فوجدوا أن الشجرة قد عادت إلى حجمها الطبيعي، وأن الثمار حلو مذاقها.

صفق أهل القرية بحرارة على ياسمين ذات العشر سنوات، لأنها أوقفت صخب الشجرة بذكائها، فأخبرها والدها:

--لا يجب أن نعطي أي شيء أكبر من حجمه فيطغى. وأن الأشياء التي تزيد عن حدها، تنقلب إلى ضدها. فهذه الشجرة مثلا كانت ترتوي بالماء الذي يكفينا ليومين.

عاش الجميع في أمن وسلام بعد أن اعتذرت ياسمين، و بعد التخلص من مشكلة الشجرة، غرسوا أشجارا أخرى من نفس النوع والشكل والحجم. باختلاف كمية الماء التي تسقيها.

أحمد والقط الأسود

مـع بدايـة الموسـم الدراسـي بـدأ أحمـد يسـتعد ليومه الأول في المدرسة، حيث وضـع ملابسـه الجديـدة عند رأسه قبل النـوم، شوقه للقـاء أصدقائه الجدد زاد لمـا وضـع قطعـة خبـز بـداخلها قليـل مـن العسـل، , داخـل علبـة بلاسـتيكية ووضـعها هـي الأخـرى عنـد رأسه ...

استيقظ أحمد وهو جد مسرور و فرح وكله شغف. لكنه غير ملامح وجهه لما وجد النمل يكسو علبته الصغيرة التـي وضـع بـداخلها خبـزا. كيـف لا وهـو الـذي تركهـا مفتوحة... النمل يعشق كل شـيء حلـو وأحمـد جهـز لـه مـا أراد. لـم يجـد فرصـة للبكـاء ولا إزالـة النمـل عـن الخبز، إذ جاءته والدته تناديه بأعلى صوتـها:

--أحمد يا ولدي، أسرع لقد جهزت الفطور لتذهب إلى المدرسة،

--رد أحمد قائلا: أي فطور؟ لقد أكل النمل فطوري...

قالت: هذا فطور لم يقربه النمل، فيه عسل وزبدة وخبز وشاي..

فرح أحمد وأسرع بمشيته المائلة يمينا لأنه لم يكمل ارتداء حذائه...

فلما دخلا إلى غرفة الأكل وجدا قطا أسود اللون، أصفر العينين، قوي البنية، صعد فوق المائدة يأكل كل ما يحلو له، هو الآخر يعشق كل شيء حلو... حاول أحمد ذو السبع سنوات مطاردة القط، لكن دون جدوى فقد قفز من النافذة هربا بجسده وأرواحه السبعة...

حاولت الأم الإسراع قدر الإمكان لكي لا يتأخر أحمد عن موعد المدرسة، فأخذت القليل من التمر ووضعته في جيبه فدفعته إلى باب الخروج قائلة:

--اذهب بسرعة لكي لا تتأخر، فأصدقاؤك في انتظارك ...

في الطريق إلى المدرسة لاحظ أحمد القط الأسود أصفر العينين والبنية القوية، تبعه لمسافة طويلة، فتوغلا

بين دروب القرية وأزقتها الضيقة، هرب القط عبر أسطح المنازل، لكن أحمد فقد طريق المدرسة، ولم يتذكر طريق العودة إلى المنزل، بقي في مكانه هادئا تارة، وخائفا تارة أخرى، وسط أزقة خاوية على عروشها، حتى موعد آذان صلاة الظهر، ليتذكر أن المسجد قريب من المدرسة فتبع صوت الآذان بخطوات سريعة إلى أن وصل إلى باب المدرسة ودخل مباشرة إلى القاعة الأولى الموجودة على يمينه، دخل بدون إذن ولا سلام... فأصبح محط سخرية واستهزاء التلاميذ الذين يدرسون بالمستوى السادس ابتدائي، بعد ذلك وجهه المعلم إلى قاعة المستوى الأول ابتدائي، دخل كعادته إلى القاعة بوجه يثير الدهشة كله عرق وآثار الشمس والتعب تظهر عليه، لم يطرق الباب ولم يلقي تحية السلام وجلس مباشرة في مقعد فارغ في الصف الأمامي...

منذ جلوسه وعينه لم تستقر في مكان واحد، يرى الصور الحائطية والكتابات المزخرفة في الجدران وصور الحيوانات، مباشرة قام من مقعده وتوجه إلى

المجلة التي تحتوي على صور الحيوانات، فقد أثار فضوله قط أسود هناك بين باقي الحيوانات، أصفر العينين وقوي البنية، لم يتردد ولو للحظة فقام بتمزيق وقطع المجلة ظنا منه أنه انتقم من القط.

شعر التلاميذ بعدها بنوع من الغرابة لأنه منظر غير مألوف لديهم، لكن المعلمة أخذت الطفل أحمد، بعد أن تركت له مجالا حرا يعبر فيه عن حبه الأول للمدرسة سرعان ما تحول على عنف داخلي بينه وبين القط الوهمي، طلبت منه أن يجلس في مقعده وسألته عن اسمه فقال:

--اسمي أحمد، وهذا القط أكل فطوري بالكامل...

كان صوته قريبا من نبرة البكاء بعد التعرض للظلم،

انسجم بشكل كبير مع زملائه في الفصل، لأنه كان كثير الحركة والكلام، كباقي التلاميذ أو أكثر .

وما هي إلا خمس دقائق حتى رن جرس الخروج، خرج الجميع إلا أحمد الذي بقي في مكانه لأنه تذوق

وبشكل كبير حلاوة المدرسة بعيدا عن مطاردة القطط. لكنه غادر بعد أن أخبرته المعلمة بأنه يمكنه العودة أيضا يوم غد .

كان رجوعه إلى المنزل بمثابة تحقيق انتصار خارج الميدان، انتقم من القط أسود اللون اصفر العينين قوي البنية، وتعرف على زملائه الجدد... وفي الطريق أيضا بصرت عيناه قطا أسود لونه ... لم يتعقبه هذه المرة ولم ينوي مطاردته فقد تعلم درسا أنه إذا تبع القطط مرة أخرى سيبقى بدون وجبة غذاء، وهذا هدف قد تحقق، بفعل الخطأ تكرر مرة فأصبح درسا لا تمحوه السنون ولا نكبات وتقلبات الدهر.

زلــزال

اهتـزت أرض المغرب ليلـة الجمعـة، هزة أرضـية قوية شعر بها سكان بعض المدن... وأنـا فـي زاكورة القابعـة فـي حرارتهـا المعهـودة صيفا، تناولـت وجبـة العشـاء الخفيفـة، أكلنـا مـا تبقـى مـن كسـكس الغـذاء الخـاص بيوم الجمعـة، فأخذت ابنتـي الصـغيرة النائمـة باكرا إلى البيت، حتـى أضعها تنـام فـي مكانـها وأجلس للكتابة كما العادة ... كانت خلالها الساعة تشير إلى ما ين العاشرة والحادية عشرة ليلا. أحسسنا بصوت قوي يزداد قوة كلما اقترب، كأنـه سرب من طيـور عملاقة تجتـاح الإقليم، أو كقطط ضـخمة تـركض فـوق أسـطح المنازل هربا من حرارة زاكورة، لكن في الحقيقـة بـدت أسراب من الحمام والطيور الصغيرة تحلق فـي السماء خائفة تتسابق إلى البحث عن مكان آمن، كـان ذلـك قبـل الصـوت المرعـب بثـواني قليلـة... وبعـد بضـع ثـواني أخرى، اهتزت الأرض اهتزازا واصطكت الأسنان خوفا وارتجفت الأيدي رعبا، فكان الكل يهرول إلـى الخـروج مـن بـين الحيطـان خوفـا مـن انهيـار المنـازل الطينيـة

المبنية بالتربة والتبن وبقايا النخيل... خرجنا مسرعين وفي يدي ابنتي، وكل أهل البيت قد سبقونا للخروج أمام المنزل، فاستقرت الأرض بعد هزة قوية حركت المشاعر وأنزلت الدموع.

وجدنا الجيران قد هربوا إلى ساحة كبيرة أمام المنازل، وكنا معهم من الشاهدين على ليلة مليئة بكل المشاعر والأحاسيس، خاصة تلك الدفينة منها في الداخل، لأن الكثير من السكان لم يعيشوا مثل تلك الليل، وصراحة كانت أول مرة أحس فيها بالأرض تتحرك، وأول مرة أسمع فيها أن زلزالا قد مر من هنا، فالحمد لله أننا مازلنا على قيد الحياة، وما هي إلا دقائق معدودة حتى بدأت تصلنا الرسائل والصور عبر شبكات التواصل الاجتماعي وعلى شاشة التلفاز، مفادها أنا هذا الزلزال كان مدمرا قويا، وكان مركزه إقليم الحوز والنواحي، كان الكل يتصل للاطمئنان، وكنا نتصل على الأهل والأصدقاء في مدن الدار البيضاء ومراكش وشيشاوة وأكادير وورزازات، حتى بدأت صور المنازل المهدمة والقرى المدمرة والسيارات التي وقعت علها أجزاء من

المنازل، وصور جثث الضحايا بين الأنقاض، كان الأمر مؤسف حقا...

كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، وبدأت الأخبار تنتشر بأن الزلزال تتبعه هزة ارتدادية ستضرب مرة أخرى بعد ساعة إلا أن الليلة مرت كلها كآبة وحزنا وخوفا وترقبا... فلم نتمكن من النوم.

لم نعد نقوى على مشاهدة شاشة التلفاز لمدة عشرين يوما، لأن مشاهد الحزن لم تتوقف، كما أن مشاهد التضامن لم تتوقف، لأن شاحنات المساعدات الغذائية والصحية والأغطية والملابس والخيام وحملات التضامن استمرت لأكثر من شهر، خاصة وأن المتضررين من الزلزال أغلبهم من المناطق الجبلية التي تتميز بطرق وعرة وتضاريس سهلتها روح التعاون بين مدن المغرب، من شماله إل جنوبه ومن شرقه إلى غربه. فكان الزلزال بمثابة جهاز كشف معدن المغاربة فكان معدنا أصيلا، ورحم الله كل الشهداء.

لحظة الغروب

أنا هنا الآن، واقف على حافة وادي درعة، أستمع بكل ما في داخلي من قوة وضعف لأصوات متفرقة ومختلفة، منها الطيور المهاجرة والحمام واليمام والأحصنة التي تنتظر صاحبا قبل مغرب الشمس، وأصوات الفلاحين الذين يكبرون ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم، و صوت منجل "مي فاطمة" التي تحصد الحناء لتبيع البعض منها في السوق الأسبوعي بعد أن تجف وتصبح عبارة عن مسحوق، أو صوت الحاج أحمد الذي صعد فوق النخلة الشامخة، ليقوم بتلقيحها مردد أشعارا ضمن فولكلور "أقلال" المحلي بصوت مرتفع ،أما أنا فلم يعد بمقدوري البقاء على حافة الوادي فنزلت إلى الوسط وقت عشية مزينة بلحظة الغروب، أجمع بقايا قوقعة سلحفاة كانت تظن نفسها في مأمن تحت صخرة في بركة من وادي درعة، لكن فضولها جعلها تتمسك بحبل صنارة لتتعلق به فيأخذها صياد يلملم جراح انتظاره لسمكة عنيدة ضخمة فكان ذلك سرابا، إلا أنه تفاجأ بك أيتها

السلحفاة ذات الحظ العاثر، فعلقها بحبل فوق جذع شجرة حتى ماتت، وللأسف تركت صغارها ينتظرون عودتها مع بعض الديدان الحمراء الصغيرة، لما تحللت جثتها سقطت منها قوقعتها فاجتمع النمل عليها فألقت بها الرياح وسط الماء، لتصبح عبارة عن حاملة نمل إلى الضفة الأخرى، مثل مهاجرين غير شرعيين، وكان في ذات المكان قناص متخفي يتعقب أرنبا بريا من بين أشجار الوادي، أحس بعطش شديد فأخذ القوقعة ليشرب منها فأغرق النمل بكامله في الماء لما أراد أن ينظفها ، كل نملة علقت ببقايا أغصان الطلح المترامية في الماء، لتنجو بنفسها من الغرق، والبعض الآخر قد تمسك بالأمل لكي لا يغرق... فلا يغرق.

شرب القناص الماء في قوقعة السلحفاة فقام برميها على صخرة حادة فانكسرت وأصبحت عبارة عن حطام، أقول حطاما لأنها كانت قبل أن تتكسر سفينة ولم لا حاملة طائرات، فالنمل يطير إذا أصبحت لديه أجنحة، أردت جمعها وإعادتها إلى شكلها الطبيعي لكن دون جدوى، فلا لصاق هناك ولا خيط ولا إبرة ولا

مثقاب، لن تصبح قابلة للاستعمال مرة أخرى، رميتها أنا الآخر في الماء. وأخذت هاتفي لألتقط صورة المساء لحظة الغروب الممزوجة برائحة الأسماك والدخان المتصاعد من بين النخيل، لأن فلاحا شعل النار ليقوم بطبخ الشاي بالحطب في إبريق صغير، فنام ولم يشعر بأي شيء إلا بعد أن اشتدت النيران في كافة النخيل القصير منه والطويل، الذكر والأنثى. الجيد وغير الجيد. فالذي أيقظه هو صوت سيارة الإطفاء التي قدمت لتطفأ نار قلب الفلاح المسكين...

ابتعدت من الوادي مقدار خمسين مترا وخطفت نظرة أخرى للخلف، لأرى الشمس تودع كل من هناك، النمل الغارق والقناص الذي بقي يتعقب مكان نوم الأرانب البرية، والسلاحف الصغيرة والكبيرة والذكور والإناث الكبيرة والصغيرة، مواسية عائلة السلحفاة ضحية الصياد الأناني، تطل الشمس هي الأخرى من بين قمم جبل كيسان، بأشعتها الضاربة في عمق الوادي، الباعثة على الأمل والغد الأفضل...

فأكملت الميسر إلى البيت، حاملا معي ذكريات الـوادي بكل تفاصيلـها .

جزء من الذاكرة

في الطريق بين قصبة المخزن وتغبالت، أشواق وحرارة الحنين والرغبة المتواصلة في تكرار تجارب الحياة القصيرة هناك، فكنت محظوظا أن أعيش هذه اللحظات بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة .

بداية باليوم الأول الذي قررنا فيه التوجه إلى مقر العمل للتعرف عليه واستكشاف المنطقة، فكان الأستاذ إلياس هو الذي يقود سيارته الحمراء، بابتسامته المعتادة على محياه الذي بدأت اللحية تتوزع فيه بشكل متدرج، وركب معنا الأستاذ محمد والأستاذ عبد الله، وركبنا السيارة باسم الله مجراها ومرساها، فكانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحا.

سلكنا الطريق الرابطة بين تينزولين وزاكورة، مرورا إلى الطريق بين زاكورة المركز ومنطقة تغبالت، مرورا بوادي درعة المتشبع بكل أنواع الاسى والأسف، جاف عن آخره...

باستثناء بعض الحفر التي تجمعت بها المياه الراكدة التي تنبعث منها رائحة الطحالب والممزوجة بالرمل

وبقايا أسماك هجرها الماء. وفي الجانب الآخر منه أشغال متواصلة لتهيئة ضفة الوادي وجعلها قبلة سياحية...

ونحن داخل السيارة بدأنا نشاهد المناظر الطبيعية مثل جبل زاكورة الشاهق والرمال الذهبية والنخيل والجمال، إذ يعتبر الخروج من " أمزرو" بداية الطريق الطويل إلى تغبالت، وعلى الساعة العاشرة صباحا ونحن تقريبا في منتصف الطريق، حدث ما لم يكن في الحسبان، حيث أن إطار عجلة السيارة قد حدث فيه جرح كبير، وبدأت تميل السيارة في اتجاه العجلة المتضررة .

حاولنا استبدال الإطار بآخر احتياطي فوجدناه كذلك على نفس الحالة، فاضطر الأستاذ إلياس أن يعود أدراجه عبر سيارة أجرة كبيرة إلى مركز مدينة زاكورة لإصلاح الإطار المطاطي عند مختص هناك .

بعد مرور ساعة كاملة، وصل الأستاذ إلياس ومعه الإطار، قام ضيف معنا بتركيبه للعجلة... انطلقنا وكلنا

أمل أن نصل المكان الموعود، وجنبات الطريق ضيعات فلاحية منتشرة هنا وهناك، يمينا وشمالا، ممتلئة بأنواع البطيخ والطماطم والبصل ...

وصهاريج المياه العذبة الصالحة للشرب والسقي ممتدة على امتداد العين وما رأت.

وما هي إلا دقائق معدودات حتى بدأت المنازل تظهر متفرقة وتتجمع كلما اقتربنا، كان منظرا رائعا، وسط اندهاش الجميع أن تغبالت هي مكان بروعته يضاهي مدينة فوق السحاب،

نظرا لتواجدها الجغرافي على جبل كبير. وهنا نعود لأصل التسمية، تغبالت هي كلمة أمازيغية تعني بالعربية مصدر الماء أو العين التي تفيض بالماء، وهذا ما وجدناه خلال وصولنا إلى عين المكان. نخيل وحناء ووديان جافة ومنازل مشيدة بالحجارة وأناس طيبون...

توجهنا مباشرة نحو المدرسة الابتدائية المركزية المتواجدة في دوار "أيت مناد" بجماعة تغبالت، فكانت

ذات مساحة شاسعة وحجرات كبيرة... واستقبلنا عبد السلام هناك. فكانت الوجهة نحو فرعية " تلاكلو" البعيدة بنحو كيلو متر واحد عن المركزية، وبعدها فرعية " إفرط " البعيدة جدا عن المركز، أما فرعية " هودا " فلا وقت لها لأن الطريق للوصول إليها كان شاقا، فركبنا السيارة على الفور عائدين إلى "تنزولين" التي وصلنا إليها على الساعة السادسة مساء، وبعدها قصبة المخزن موطن ولادتي .

في اليوم الموالي رجعنا إلى تغبالت، وهذه المرة من أجل توقيع محضر الدخول لمزاولة مهنة التدريس بها، فكانت أول محطة في المسيرة المهنية التي دامت هناك ثلاث سنوات، مرت بحلوها و مرها، بلحظاتها الجميلة والحزينة، باختلاف أصدقاء العمل الذين ألقت بهم دروب الحياة إلى مناطق أخرى، سواء أكانت قريبة من مسقط رأسهم أم بعيدة... و مدير المدرسة " يونس زكري"، الشاب المحب للعمل الجمعوي والتطوعي والخيري. وكذا سكان تغبالت الكرام.

كانت ثلاث سنوات كأنها ثلاثة أيام فقط، اختصرتها في الطريق من المنزل الذي اكتريه هناك برفقة الأساتذة، إلى المدرسة المركزية التي أشتغل بها. وبين الطريق إلى قنطرة الوادي ، وبين مسجد الدوار والركض المتقطع رغبة في إنقاص بضعة كيلوغرامات من الوزن .

وزيارة الأصدقاء هناك في " تزارين " واللحظات العصيبة التي يمر بها السكان من أجل إيجاد وسيلة تنقل من تغبالت إلى تزارين وإلى زاكورة...

كانت تجربة مهنية رائعة تستحق أن تحفظ وتكتب في سجل الذاكرة.

نبذة عن الكاتب

الاسم الكامل: مصطفى الخراز مواليد زاكورة بتاريخ 1991/04/13

حاصل على شهادة الإجازة من جامعة ابن زهر كلية الاداب والعلوم الإنسانية سنة 2016 تخصص لغة ولسانيات

أستاذ التعليم الابتدائي فاعل جمعوي ورئيس جمعية الوفاء للتنمية والأعمال الاجتماعية بقصبة المخزن

وكاتب جمعية آباء وأمهات وأولياء التلاميذ بقصبة المخزن.

من مؤلفاتي: ابن الجنوب، مجموعة قصصية من نشر وتوزيع دار ديوان العرب للنشر والتوزيع بمصر 2023

حديث الليالي الباردة، مجموعة قصصية مشتركة من إخراج جامعة المبدعين المغاربة سنة 2023 شاركت فيها بقصة : من أيامي

وتستمر الحياة، كتاب مشترك حول زلزال الحوز وضواحيه، مقالة / شعر/ قصة/ زجل. شاركت فيه بقصة قصيرة بعنوان: المكالمة الأخيرة.2023

الفهرس

الإهـــــداء..................................5

عروس تيفريت. 6

في المدينة..................................10

رسالة من مجهول............................13

على شجرة الرمان...........................16

غيوم ودموع.................................18

الشجرة العجيبة........ 26

أحمد والقط الأسود 31

زلزال..36

لحظة الغروب................................39

جزء من الذاكرة..............................43

نبذة عن الكاتب..............................48